الفصل الرابع

قصة إسلام
أبي سفيان رضي الله عنه

obeikandl.com

obeikandl.com

قصة إسلام أبي سفيان رضي الله عنه

٢٠

هذا الصحابيُ (أبو سفيانَ بنُ حرب) زعيم من زعماء مكة، حَملَ لواءَ الشرك زمناً طويلاً، وقد تأخَّر إسلامُه إلى (يوم الفتح) فلم يدخل في الإسلام إلَّا عندما فُتحتْ مكةُ، ودخلَ الناسُ في دين اللَّه أفواجاً!!

كان شديدَ العداء للإسلام، وفي غزوة بدر، كان (أبو سفيان) هو قائد (القافلة التجارية) القادمة من الشام، وقد وصل إلى سمعه أن المسلمين خرجوا للتعرض لتجارتهم، فأرسل إلى قريش يستنفرهم، واستأجر رجلاً يدعى (ضَمْضَم الغِفَاري) وأَمَرَه أن يأتي قريشاً ويخبرهم بالخطر، ويحثهم على الخروج، للدفاع عن أموالهم، فبلغ الخبرُ قريشاً، فتجهَّزوا سِرَاعاً، قاصدين الغزو، حتى لم يتخلَّف من أشرافِ قريش أحد، وكانوا قريباً من ألف مقاتل، كلُهم مدجَّجٌ بالسلاح، يريد القضاءَ على المسلمين.!

رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب

رأت (عاتكةُ بنتُ عبد المطلب) رؤيا منامية أفزعتها، فبعثتْ إلى أخيها (العباس) فقالت له: يا أخي، واللَّهِ لقد رأيت الليلةَ رؤيا أفزعتني، وتخوَّفتُ أن يدخل على قومك ـ أهل مكة ـ منها شرٌّ وبلاء، فاكتمْ عنِّي ما أحدِّثك به!!

فقال لها: وماذا رأيتِ؟ قالت: رأيتُ راكباً أقبل على بعير ـ جمل ـ حتى وقف على مرتفع، ثم صرخ بأعلى صوته ثلاثاً، أَلَا يا معشر قريش، هيَّا اخرجوا إلى مصارعكم، ثم دخل المسجد الحرام، والناسُ يتبعونه، فبينما هم ينظرون إليه، إذ علا ببعيره على ظهر الكعبة، ثم صرخ بمثلها (اخرجوا إلى مصارعكم) في ثلاث ـ أي ثلاثة أيام ـ ثم صعد به بعيرُه على جبل (أبي قُبيس) فصرخ بمثلها، ثم أخذ صخرةً فرمى بها من أعلى الجبل، فأقبلتْ تهوي، ثم ارفضَّت ـ أي تَفَتَّتتْ ـ فما بقيَ بيتٌ من بيوت مكة، ولا دارٌ إلَّا دخلت منها فِلْقة!

قال العباس: فلقيتُ (الوليدَ بنَ عُتبة) وكان له صديقاً، فذكرها له، واستكتمه إيَّاها، فذكرها الوليدُ لأبيه (عُتْبة) ففشا الحديثُ عنها بمكة، حتى تحدثت بهذه الرؤيا قريشٌ في أنديتها!!

obeikandl.com

انتشار أمر الرؤيا بين قريش

قال العباس: فغدوتُ لأطوفَ بالبيت، فرأيتُ (أبا جهل) في رهطٍ من قريش، وهم قعود يتحدَّثون برؤيا عاتكة!

قال: فلما رآني (أبو جهل) قال لي: يا أبا الفضل، إذا فرغتَ من طوافك فأَقبِلْ إلينا!!

يقول العباس: فلمَّا فرغتُ أقبلتُ نحوهم، حتى جلستُ معهم، فقال لي أبو جهل: يا بني عبد المطَّلب! متى حدثَتْ فيكم هذه (النبيَّة)؟ أَمَا يكفيكم أن تتنبأ رجالُكم، حتى تتنبَّأ نساؤكم؟

قد زعمتْ عاتكةُ في رؤياها أن الصارخَ قال: انفروا في ثلاثة أيام، فسنتربَّص بكم هذه الثلاثة أيام، وإن مضت الثلاثُ ولم يكن من ذلك شيءٌ، فسنكتبُ عليكم أنكم أكذبُ أهلِ بيتٍ في العرب.!

تحقق الرؤيا بعد ثلاثة أيام

قال العباس: فجحدتُ ذلك وأنكرتُه، ثم تفرَّقنا وقد مضى على الرؤيا يومان، وبينما أنا مشغولٌ في الردِّ على (أبي جهل) غدوتُ في اليوم الثالث من الرؤيا، وأنا أريد أن أتعرَّضَ له، إذا به يشتدُّ نحو باب المسجد الحرام، فقلتُ في نفسي: ما لَهُ لَعَنه اللَّه؟ سمع صوتَ (ضَمْضَمَ الغفاري) وهو يصرخ ببطن الوادي، واقفاً على بعيره، قد شقَّ قميصه وهو يقول: يا معشر قريش، اللَّطيمةَ، اللَّطيمةَ!! ـ أي الفاجعةَ والكارثة حلَّت بكم ـ أموالُكم مع (أبي سفيان) قد عَرَض لها محمدٌ وأصحابُه، لا أرى أن تدركوها! الغَوثَ، الغَوْثَ!!

قريش تتهيأ للحرب وتخرج إلى بدر

تداعتْ قريش بقضِّها وقضيضها، للدفاع عن تجارتهم، فاستعدُّوا للحرب، ثم جاءهم الخبرُ من جهة (أبي سفيان) أنَّ العيرَ قد نَجَتْ، فارجعوا إلى رِحَالكم ـ يعني دوركم ومساكنكم ـ فقد نجَّاها اللَّه تعالى.

فقال أبو جهل: لا واللَّهِ لا نرجع، حتى نَرِد بدراً، فنقيمَ به ثلاثاً، فننحرَ الجَزُور ـ الإبل ـ ونطعمَ الطعامَ، ونُسْقَى الخمرَ، وتضرب علينا القِيان ـ يعني المغنِّيات ـ ويسمع بنا العرب وبمسيرنا، فلا يزالون يهابوننا بعدها أَبَداً!!

أمَّا (أبو سفيان) فلم يكن في هذه الغزوة (غزوة بدر) لأنه كان رئيساً للتجارة التي خرجت إلى بلاد الشام، ثم رجع بها دون خطر، ولكنه كان يؤلِّب المشركين ضدَّ رسول اللَّه ﷺ والمسلمين.

موقفٌ مشرِّفٌ لأم حبيبة بنتِ أبي سفيان
من هي أم حبيبة؟ وكيف أصبحت زوجةً لرسول اللَّه ﷺ، مع أن أباها كان مشركاً؟

لقد كانت أمُّ حَبيبة واسمها (رَمْلَةُ بنتُ أبي سفيان) رضي اللَّه عنها قد أسلمتْ، وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة (الهجرة الثانية) ولمَّا توفي زوجُها بأرض الحبشة، ولم يبق لها معيلٌ ولا نصير ـ وكان أبوها (أبو سفيان) لا يزال مشركاً ـ أراد الرسول ﷺ أن يتزوج بها كرامةً لها، ليحميها ويحفظها من سطوة أبيها (أبي سفيان)، فبعثَ الرسولُ ﷺ إلى النَّجاشي ليخطبها له، ويزوِّجه إياها، فلمَّا بلغَهَا الخبرُ فرحت فرحاً عظيماً، فزوَّجه إياها، وأصْدَقَها عنه (٤٠٠) أربعمائة دينار، وبعثَها إلى رسول اللَّه ﷺ، ولمَّا بلغ (أبا سفيان) خبر زواج الرسول ﷺ بها، لم ينكر ذلك، وإنما أقرَّه وأثنى عليه بقوله: (هو الفحلُ لا يُجْدعُ أنفُه) يريد أنه أهلٌ وكفءٌ لأن يكون زوجاً لابنتي.!

ولننظر إلى هذا الموقف المشرِّف من (أم حبيبة) رضي اللَّهُ عنها، فإن قريشاً لمَّا نقضت العهدَ مع رسول اللَّه ﷺ، في (صلح الحديبية) وخشيتْ أن يغزوَهَا الرسولُ ﷺ، أرسلت (أبا سفيان) إلى المدينة المنورة، ليجدِّدَ الصلحَ، ويزيدَ في المدة، واختارته لأن ابنته عند رسول اللَّه ﷺ، ولمَّا قدم المدينَة، دخل المسجد على رسول اللَّه ﷺ، وكلَّمه في الصلح وزيادة المدة، فقال له الرسول الكريم: نحن على الوعد والعهد، وأبى أن يزيد في مدة الصلح!!

خيبةُ أملِ أبي سفيان من وساطة ابنته

فخرج من عنده، وذهب إلى ابنته (أم حبيبة) وسألها أن تتوسَّط له عند الرسول، فأبتْ وقالت له: لا أحدَ يستطيع أن يُجيرَ على رسولِ اللَّهِ ﷺ أو يشفعَ لمشركٍ عنده! ورأى (أبو سفيان) فراشاً مبسوطاً على الأرض، فأراد أن يجلس عليه، فأسرعتْ نحو البساط، فطَوَتْه عنه، فقال لها أبوها: ما لَكِ يا ابنتي؟ أرغبتِ به عنِّي، أمْ به أذى؟ فقالت له: إنك رجلٌ مشركٌ نجسٌ، وهذا فراشُ رسول اللَّه،

ما كان لك أن تجلس عليه!؟ فغضبَ وقال لها: لقد أصابك بعدي شرٌّ وبيل[١]!

الإيمان أعلى من كل الروابط

اللَّهُ أكبرُ، ما هذا الموقف الحازم الحاسم؟ ابنته من صُلْبه التي غَزَّاها وربَّاها، تقول لأبيها هذا الكلام الشديد، الذي يَفِيض بالألم والشدة، والكراهية لعمله القبيح، ولا يمنعها أن تُشعره بأنها مؤمنة، تُبغض كلَّ من عادى اللَّهَ ورسوله، حتى ولو كان أقرب الناس إليها!؟

إنَّ من يعرف حقيقة الإسلام، ويتذوَّقُ طعمَ الإيمان، يعلم علم اليقين أن (رابطة العقيدة)، أقوى من (رابطة النسب) وأن الإخلاصَ لهذا الدين، يستوجب قطعَ العلاقة بين الكفر والإيمان، فلا مودة، ولا محبة، ولا رابطة مع من عادى اللَّهَ ورسولَه، تصديقاً لقوله سبحانه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ...﴾ الآية [المجادلة: ٢٢].

* * *

(١) أخرجه ابن سعد ٨/ ٧٠ عن الزهري وانظر كتاب حياة الصحابة ٢/ ٢٣٥.

openkandl.com

مصعبُ بنُ عُمير
وأخوه الشقيق أبو عَزيز

وشبيهٌ بهذه القصة، ما وقع لمصعب بن عُمير مع أخيه (أبي عَزِيز بن عُمير) الذي خاض المعركة ضدَّ المسلمين، فحين وقع أسيراً في (غزوة بدر) وقال الرسول ﷺ لأصحابه: لا ينفلتُ أحدٌ من هؤلاء الأسرى، إلّا بإسلام أو فداء، مرَّ (مصعب) رضي اللّه عنه على أخيه (أبي عَزِيز) وهو أسيرٌ، أَسَره رجلٌ من الأنصار، فقال (مصعب) للأنصاريِّ: شُدَّ يدك به، فإن أمَّه ذاتُ متاع، لعلَّها تفديه منك بمبلغ كبير!!

فقال له أخوه (أبو عَزِيز): يا أخي، هذه وصاتُك بي؟ تأمره أن لا يطلق سراحي، إلّا بمال كثير!؟ فقال له مصعب: إنه أخي دونك!

يريد أنَّ الأنصاريَّ أخوه في الإيمان، وهو عنده أعزُّ وأكرم من أخيه في النسب.!

قطعُ العلاقة بين الإيمان والكفر

وهذه هي (الرابطة الحقيقية) بينهما، فقد قطع الإسلام العلاقةَ بين الإيمان والكفر ـ فلمَّا جاء الخبرُ لأمه، أرادت أن تفتدي ولدها، فطُلب منها أغلى ما فُدي به قرشي، وهو أربعة آلاف درهم، فبعثت بأربعة آلاف درهم ففدته بها، وكان أخاً شقيقاً لمُصعبِ بنِ عُمَير، وقد أسلم أبو عَزِيز بعدُ، وحَسُن إسلامه[1].!

وفي رواية الواقديّ عن أيوب بن النعمان، أنه قال: (أُسِرَ يومَ بدر (أبو عَزيز بنُ عُمير) وهو أخو (مصعب بن عُمير)) الشقيق، وقع في يد (مُحْرِز بنِ نَضْلة) فقال مصعب لمُحْرِز: اشدد يديك به، فإن له أماً بمكة كثيرة المال، فقال له عَزِيز: هذه وصاتُك ـ أي وَصِيَّتك ـ بي يا أخي؟ فقال

(١) أخرجه ابنُ إسحاق، البداية والنهاية ٣/ ٣٠٧ وحياة الصحابة ٢/ ٢٣٣.

له مصعب: إن مُحْرزاً أخي دونك، فبعثت أمه عنه بأربعة آلاف درهم)[١].

أبو سفيان في مقدمة المحاربين في غزوة أُحد

في غزوة أُحد، كان (أبو سفيانَ بنُ حرب) في مقدِّمة المحاربين للإسلام، وهو الحاملُ لِلِواءِ الكفر يومذاك، وقد كان (أبو سفيان) أشدَّ الناس تأليباً على المسلمين، وكانت (القيادةُ العامة) في هذه الغزوة (لأبي سفيان) وقيادةُ الفرسان (لخالد بن الوليد) يعاونه (عكرمةُ بنُ أبي جهل) وقد خرج جيش المشركين لغزو المدينة، يريدون استئصالِ دين محمد عليه الصلاةُ والسلام.!

كان عددُ المشركين في غزوة أحد (٣٠٠٠) ثلاثة آلاف مقاتل، وعدد المسلمين (١٠٠٠) ألف مقاتل، ولمَّا خرج الرسولُ ﷺ بأصحابه إلى أُحُد، انخذَلَ عنه رأسُ المنافقين (عبدُ اللَّهِ بن أُبيِّ بنِ سَلُول) بثلث الجيش، وكرَّ راجعاً وهو يقول: عصاني محمد، وأطاعَ الوِلْدانَ، ومن لا رأي له، علامَ نقتلُ أنفسنا!؟ ـ يريد أن الرسول لم يأخذ برأيه، وأخذ برأي بعض الشباب ـ وتَبِعهم (عبدُ اللَّه بن حرام) والدُ (جابر) يناشدهم اللَّهَ ألَّا يخذلوا نبيهم، فلم يستجيبوا لندائه، وقال رأسُ المنافقين ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧] فرجع عنهم (عبدُ اللَّهِ بنُ حَرَام) قائلاً: أَبْعَدكم اللَّهُ أعداءَ اللَّه، فسيغني اللَّهُ رسولَه عنكم، وفي هؤلاء المنافقين يقول اللَّه تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ...﴾ [آل عمران: ١٦٧].

روى البخاري رضي اللَّه عنه، أن المسلمين اختلفوا في أمر هؤلاء، الذين انخذلوا عن المسلمين، ففرقةٌ تقول: نقاتلهم، وأخرى تقول: دَعُوهم، فنزل في ذلك قولُه تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ...﴾ [النساء: ٨٨]؟

وقال ﷺ للمنافقين: (إنها طيبةُ تنفي الخبثَ، كما تنفي النارُ خَبَثَ الحديد)[٢].

رسول اللَّه ﷺ يهيِّئ الصفوف للقتال

بعد ذلك التمرد من المنافقين، قام النبيُّ ﷺ ببقية الجيش ـ وهم زُهاءَ سبعمائة مقاتل ـ والمشركون ثلاثة آلاف مقاتل، وهناك عبَّأَ الرسولُ ﷺ جيشَه،

(١) نصب الراية للزيلعي ٣/ ٤٠٣ وانظر حياة الصحابة ٢/ ٢٣٣.
(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب الجهاد ٣/ ٢٢.

وهيَّأهم صفوفاً للقتال، فانتخبَ منهم فصيلةً من الرماة الماهرين، قوامُها (٥٠) خمسون مقاتلاً، وسلَّم قيادَتها لبطلٍ مناضل، هو (عبدُ اللَّهِ بنُ جُبَيْر) وأوصى هؤلاء الرُّماةَ، أن لا يبرحوا أماكنهم، وقال لهم: احْمُوا ظهورنا، فإن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا غنمنا فلا تَشْركونا)[١].

وفي رواية البخاري أنه قال لهم: (إن رأيتمونا تخْطَفُنا الطيرُ، فلا تبرحوا مكانكم هذا ـ أي لا تتركوه ـ حتى أُرسل إليكم، وإن رأيتمونا هَزَمْنَا القومَ وَوطِئْناهم، فلا تَبْرحوا حتى أرسل إليكم)[٢].

خطة حكيمة تتجلَّى فيها عبقرية الرسول ﷺ

وبهذا التوجيه العسكري الدقيق، قطع الرسولُ ﷺ على المشركين، طريقَ التسلُّلِ عليه، لئلا يأتوا المسلمين من خلف ظهورهم، وسدَّ الثُّلمةَ الوحيدةَ، التي يمكن للعدوِّ أن ينفُذَ إلى الجيش منها، كما أنه عوَّض النقصَ العدديَّ في رجاله، باختيار نخبةٍ ممتازة من أصحابه الشجعان، الرماة البارزين.

كانت هذه الخطة الحكيمة، دقيقةً جداً، تتجلَّى فيها عبقريةُ الرسول القائد ﷺ، فقد احتلَّ أفضل موضع من ميدان المعركة، مع أنه نزل فيه بعد العدو، فقد حَمَى ظهْرَه بارتفاع الجبل ـ جبل الرماة ـ وحمى ميسرَته بسدِّ الفجوة، التي هي في جانب الجيش الإسلامي، واختار لمعسكره موضعاً مرتفعاً، يحتمي به إذا نزلت الهزيمة بالمسلمين، ولا يلجأ أحد منهم إلى الفرار.

لقد أخذ الرسول ﷺ ينفثُ روحَ الحماسةِ والبطولة في أصحابه، حتى جرَّد سيفاً باتراً ونادى: (من يأخذ هذا السيف بحقه؟ فقام رجال ليأخذوه، منهم (الزبير، وعليٌّ، وعمر بن الخطاب) حتى قام إليه (أبو دُجانَة) فقال: وما حقُّه يا رسولَ اللَّه؟ قال: أن تضرب به وجوه العدوِّ حتى ينحني، فقال: أنا آخذه بحقه يا رسول اللَّه، فأعطاه إيَّاه، فلما أخذ السيف، عَصَبَ رأسَه بعصابة حمراء، وجعل يتبختر بين الصفوف، حتى فَلَق به هامَ الأعداء)، وقد تقدمت قصته رضي اللَّه عنه وأرضاه.

تعبئة جيش المشركين في أُحُد

أمَّا المشركون فعبَّأوا جيشهم حسب نظام الصفوف، فكانت القيادة العامة إلى (أبي سفيان) الذي تمركز في قلب الجيش، وجعلوا على الميمنة (خالدَ بنَ

(١) رواه أحمد والطبراني عن ابن عباس.
(٢) صحيح البخاري كتاب الجهاد ٣/ ٢٣.

الوليد) ـ وكان إذ ذاك مشركاً ـ وعلى الميسرة (عكرمةَ بنَ أبي جهل) وعلى المُشَاةِ (صَفْوانَ بنَ أُميَّة) ولمَّا احتدمت المعركة، واندلعت نيرانُ الحرب، كان أولُ وقود هذه المعركة، حاملَ لواء المشركين (طَلْحةَ بنَ أبي طَلْحةَ) وكان من أشجع فرسان قريش، خرج راكباً على جمل، يدعو إلى المبارزة، فأحجم عنه الناسُ لفرطِ شجاعته، فتقدَّم إليه (الزُّبير) رضي اللَّه عنه، ووثب عليه وثبةَ اللَّيْثِ، فألقاه على الأرض، وذبحه بسيفه البتَّار.!

ورأى رسولُ اللَّه ﷺ هذه الشجاعة الباسلة، فكبَّر وكبَّر المسلمون، وأثنى على الزُّبير، وقال مشيداً ببطولته (لكل نبيٍّ حواريٌّ، وحواريَّ الزبيرُ)[1] ثم حمل اللواءَ (عثمانُ بنُ أبي طلحة) فحمل عليه (حمزةُ بن عبد المطلب) رضي اللَّه عنه، فضربه ضربةً بترتْ يدَه، حتى وصلت إلى رئته، فأردَاهُ قتيلاً.

ثم احتدمت المعركة بين المسلمين والمشركين، فانطلق المسلمون يحصدون المشركين كما يُحْصَدُ الزرعُ، حتى أمعنوا فيهم كثرة الجراح والقتل.!

شجاعة أبي دجانة رضي اللَّه عنه

وأقبل (أبو دجانة) معلِّماً بعصابته الحمراء ـ عصابة الموت ـ آخذاً بسيف رسول اللَّه ﷺ، فقاتل حتى أكثرَ فيهم القتل، وجعل لا يلقى مشركاً إلَّا قتَلَه، وأخذ يهدُّ صفوفَ المشركين هدّاً، وكان في المشركين شقيٌّ فاجرٌ، لا يَدَعُ جريحاً من المسلمينَ، إلا أَجْهَز عليه، فجعل (أبو دُجانة) يدنو منه، حتى التقيا، فضربه (أبو دُجَانة) ضربةً، مزَّقه بها شرَّ ممزَّق، ثم أمعن هذا البطلُ المسلم، يقتل في صفوف المشركين من يراه، حتى وصل إلى إنسانٍ متلفِّف، لا يدري من هو، فلما حمل السيف ليهوي عليه، إذا بها امرأة من نساء المشركين تصرُخُ وتُوَلْول.

قال أبو دجانة: فأكرمتُ سيفَ رسولِ اللَّه ﷺ، أن أضرب به امرأة.!

انتصار المسلمين في غزوة أُحد

وبعد اشتداد المعركة، كان النصرُ حليفَ المسلمين، وأخذت فلولُ المشركين في الهزيمة، يولُّون الأدبار، والمسلمون يحصدونهم بسيوفهم حصداً، إلى أن حَدَث ما لم يكن في الحُسْبان، حيث ترك الرُّماةُ الذين كانوا على الجبل مراكزهم، ونزلوا يجمعون الغنائم، ونَسُوا وصيَّةَ رسول اللَّه ﷺ القائد، الذي قال لهم:

(١) السيرة الحلبية ٢/ ١٨ والحديث رواه البخاري في مناقب الزبير.

احْمُوا ظهورَنا، ولا تتركوا أماكنكم، حتى ولو اختطفتنا الطير!! لا تتركوا أماكنكم سواء انتصرنا أم انهزمنا؟

أمَّا قائدهم (ابنُ جُبير) فقد ذكَّرهم أوامرَ الرسول ﷺ وقال لهم: أنسيتم ما قال لكم رسول اللَّه ﷺ!؟

ولكنَّ الأغلبية منهم لم تُلقِ لهذا النصح والتذكير بالاً، ونزلوا يجمعون الغنائم، ولم يبق على الجبل من الرماة إلَّا عشرةٌ منهم، التزموا أماكنهم، تنفيذاً لوصية رسول اللَّه ﷺ، حتى يُؤذن لهم أو يُبَادوا.

خالد بن الوليد يطوِّق المسلمين

انتهز (خالدُ بنُ الوليد) هذه الفرصة الذهبيَّة، فاستدار بسرعة خاطفة، ومعه بعض الفرسان من المشركين.!

حتى وصل إلى مؤخرة جيش المسلمين، وتَبِعه (عكرمةُ بن أبي جهل) فحملوا على بقية الرماة، فقتلوهم وأميرَهم، وأخذوا ينقضُّون على المسلمين من خلفهم، وأُحيطَ بالمسلمين، من الأمام والخَلف، وكانت الكارثةُ الأليمة.

أمَّا رسول اللَّه ﷺ فقد أشاع المشركون عنه أنه قُتل، فزاد ذلك في فَزَع المسلمين، وأخذ المسلمون يقاتلون على غير رايةٍ أو هُدَى، وأوجع المشركون في المسلمين الفتكَ، يقتلونهم قتلاً ذريعاً، حتى وصلَ إلى رسول اللَّه ﷺ من هذا البلاء، ما لا يكاد يُتَصوَّر، فرُمي بالحجارة حتى سَقَط على شقِّه، وأُصيبتْ رَبَاعيتُه ـ السِّنُّ المجاورة للناب ـ وشُجَّ في وجهه، وجعل الدمُ يسيل على وجهه الشريف، فيمسحُه وهو يقول: (كيفَ يُفلحُ قومٌ خَضَبُوا وجهَ نبيّهم، وهو يدعوهم إلى اللَّه)؟!

فاطمة الزهراء تغسل الدم عن وجه أبيها

وجاءت فاطمةُ رضي اللَّه عنها تغسل عنه الدم، وعليٌّ يسكب الماءَ بالمِجَنِّ، فلمَّا رأت أن الماء لا يزيد الدَّمَ إلَّا كثرةً، أخذت قطعةَ حصير فأحرقتها حتى صارت رماداً، ثم ألصقته بالجرح حتى اسْتَمْسَك)[1].

وفي رواية البخاري: حتى رَقأَ الدمُ أي انقطع وتوقَّف.

وقد خاطر رسول اللَّه ﷺ بنفسه، حين رفع صوته ينادي المسلمين ويقول: إليَّ عبادَ اللَّهِ! إليَّ عبادَ اللَّه، أنا رسولُ اللَّه، فلمَّا سمعَ صوتَه المشركون، كرُّوا

(١) الحديث رواه البخاري ومسلم بألفاظ متقاربة، انظر البخاري٢/ ١٥٤.

إليه ليقتلوه، وبقي مع الرسول ﷺ تسعةُ نفر، يدافعون عن رسول اللَّه ﷺ دفاعَ الأبطال، ويَحْمُونه بأجسادهم، وظهرت فيهم نوادر التفاني والفداء.

روى مسلم عن أنس رضي اللَّه عنه أنه قال: (أُفرِدَ رسولُ اللَّه ﷺ يومَ أُحُد، في سبعة من الأنصار، ورجلين من قريش ـ يعني من المهاجرين ـ فلما رَهَقَه المشركون ـ أي أكثروا السهام نحوه ـ قال: من يردُّهم عنَّا وله الجنة؟ أو هو رفيقي في الجنة؟ فتقدَّم رجلٌ من الأنصار، فقاتل حتى قُتِل، ثم لم يزل كذلك حتى قُتل السبعةُ، فقال رسول اللَّه ﷺ لصاحبيه ـ من المهاجرين ـ: ما أنصفنا أصحابَنا)[1].

ما نزل من الآيات في غزوة أُحد

وفي هذه الغزوة (غزوة أُحد) التي كان يحمل لواء الشرك فيها (أبو سفيان) وما جرى فيها من مخالفة بعض الصحابة لأوامر الرسول ﷺ حتى تَسبَّبوا في الهزيمة، بعد أن كان النصر حليف المسلمين، نزل قولُ اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

ومعنى الآية الكريمة: لقد وفَّى اللَّه سبحانه لكم وعده، بنصركم على عدوكم، فانتصرتم عليهم، وهزمتموهم ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ أي وقت أنْ كنتم تحصدونهم بسيوفكم، وتقتلونهم قتلاً ذريعاً، بإرادة اللَّه وإذنه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي حتى إذا جَبُنْتُم وضَعُف رأيكم، واختلفتم في أمر البقاء في الجبل ﴿وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ﴾ أي عصيتم أمر الرسول ﷺ، من بعد أن كان النَّصْرُ حليفَكُم ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ﴾ أي منكم من يريد الغنائمَ، ومنكم من يريد ثواب اللَّه، والشهادةَ في سبيله ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ﴾ أي ردَّكم عن الكفار بالهزيمة التي أصابتكم، ليمتحنكم ويمتحن إيمانكم ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي صفح عنكم مع العصيان لأمر نبيكم، مع عظم الذنب الذي حصل منكم بالمخالفة، وهذا كله من فضل اللَّه عليكم، إذْ لم يعاقبكم على صنيعكم.

---

(١) رواه مسلم، في صحيحه.

معنى الآيات البيِّنات

ونزل قوله تعالى: ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

والمعنى: اذكروا حين وليتم الأدبار، وأنتم تُمعِنون في الفرار من أعدائكم، صاعدين في الجبال، لا يلتفت منكم أحدٌ إلى أحد، من شدة الخوف والفزع، ورسولُ اللَّه محمد ﷺ، يناديكم من ورائكم، قائلاً: إليَّ عبادَ اللَّه، إليَّ عبادَ اللَّه، أنا رسولُ اللَّهِ، لم أُقْتَل ﴿ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ ﴾ أي جازاكم على صنيعكم غمّاً، بسبب غمِّكم لرسول اللَّه ﷺ، ومخالفتكم أمره ﴿ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ﴾ كيف لا تحزنوا على ما فاتكم من الغنيمة، ولا ما أصابكم من الهزيمة.!

درس بليغ للمؤمنين من غزوة أُحد

وفي هذه الآيات درسٌ بليغ للمؤمنين، فإن مخالفة أمر القيادة، والعصيانَ لأمرِ الرسول ﷺ، كانت السببَ في حدوث هذه الكارثة المؤلمة، بل والفاجعة الكبرى، فبعد أن كان النصرُ حليفَ المؤمنين، جاءت النكسةُ بالهزيمة والاندحار، أمام جيش الكفر والضلال، وعادت خطيئةُ أفرادٍ قليلين، بالوبالِ عليهم جميعاً، بحيث لم ينج منها حتى رسولُ اللَّه ﷺ، فكم كان وبالُ هذه الخطيئة جسيماً، وكم كانت نتيجتها عامةً وخيمة!!

أبو سفيان يتباهى بالأوثان

ولمَّا انتصر المشركون، ووضعت الحرب أوزارها، أشرف (أبو سفيان) على الجبل، وأخذ ينادي بأعلى صوته: أفيكم محمد؟ فلم يُجبْه أحدٌ، فقال: أفيكم ابنُ أبي قُحافةَ؟ ـ يعني أبا بكر رضي اللَّه عنه ـ فلم يجبْه أحد، فقال: أفيكم عمرُ بن الخطاب؟ فلم يجبه أحد.

وقد كان رسولُ اللَّه ﷺ منعهم من الإجابة، ولم يسأل إلَّا عن هؤلاء الثلاثة، لعلمه ويقينه أن الإسلام قائم بهم، فإذا قُضي عليهم قُضي على الإسلام، ولمَّا لم يجبْه أحدٌ، نادى قومَه قائلاً: أمَّا هؤلاء فقد كُفِيتموهم!؟

لم يتمالك عمرُ رضي اللَّه عنه نفسه وهو يسمع قول أبي سفيان فقال: يا عدوَّ اللَّهِ إنَّ هؤلاء أحياءٌ، وقد أبقى اللَّهُ عليك ما يَسُوءُك!!

obeikandi.com

فقال أبو سفيان: قد حدثت فيكم مُثْلَة ـ أي تمثيل وتشنيع في قتلاكم ـ لم آمرْ بها، ولم تَسُؤْني!

ثم رفع أبو سفيان صوته، مفتخراً ومباهياً بمعبوده الوثن، وأخذ يردِّد: أُعْلُ هُبَل، أُعْلُ هُبَل!!

ردُّ الصحابة على أبي سفيان

فقال النبيُّ لأصحابه: أجيبوه، فقالوا: ماذا نقول؟ قال: قولوا: اللَّهُ أعلَى وأجَل؟

فقال أبو سفيان: لنا العُزَّى، ولا عُزَّى لكم.

ـ يريد أن له إلٰهاً آخر يفخر به، هو (العُزّى) وليس عند المسلمين مثلُه ـ.

فقال النبي ﷺ لأصحابه: أجيبوه، قالوا: وماذا نقول؟ قال: قولوا: اللَّهُ مولَانا، ولا مولى لكم!

ثم قال أبو سفيان شامتاً بالمسلمين: يومٌ بيوم بدر، والحربُ سِجَالٌ!

فأجابه عمرُ قائلاً: لا سواءَ، قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار.

ثم خاطبَ أبو سفيانَ عمرَ فقال: أنشدك اللَّهَ يا عمر، أقتلنا محمداً؟

قال عمر: اللهمَّ لا، وإنه ليسمع كلامك الآن، فقال: أنتَ أصدقُ عندي من ابنِ قَمئَة وأبرُّ)[1]!!

وابنُ قَمِئة عدوُّ اللَّه، هو الذي أشاع أن محمداً قد قُتل في غزوة أُحد.

(١) انظر سيرة ابن هشام ٢/ ٩٣٠ وزاد المعاد لابن القيم ٢/ ٩٤ وصحيح البخاري ٢/ ٢٧٦.

obeikandl.com

قصة أبي سفيان مع ملك الروم

وفي قصة أبي سفيان مع ملك الروم عظةٌ وعبرة، حيث يظهر الحقُّ على لسان أحد الأعداء، وهو (أبو سفيان) الذي كان لا يزال في صف المشركين، حتى ذلك الحين.

فقد روى الإمام البخاري قصَّة (أبي سفيان) مع (هرقل) ملكِ الروم، وإليكم خلاصة هذه القصة من مشكاة النبوة.

كان رسولُ اللَّه ﷺ كتبَ كُتباً إلى ملوك وعظماء العالم، يدعوهم إلى الإسلام، من جملةِ هذه الكتب، كتابُهُ إلى (قيصر) ملكِ الروم، فقال بِسنده عن عبد اللَّه بن عباس رضي اللَّه عنهما (أن رسول اللَّه ﷺ، كتب إلى (قيصرَ) ملك الروم يدعوه إلى الإسلام، فلمَّا جاء كتابُ رسول اللَّه إلى قيصَر، قرأه، فقال لحاشيته: التمسُوا لي أحداً من العرب، لأسألهم عن رسول اللَّه ﷺ.!

قال ابن عباس: فأخبرني (أبو سفيان) ـ يعني بعد إسلامه ـ أنه كان بالشام، مع رجالٍ من قريش، قدموا للتجارة، في المدة التي كانت بين رسول اللَّه ﷺ وبين كفار قريش ـ يريد به صلح الحديبية ـ!!

قال أبو سفيان: وكان قد وجَدَنا رسولُ (قيصرَ) بأرضِ الشام، فانطلَقَ بنا فأدخلنا على (قيصر) ملكِ الروم، فإذا هو جالس على عرش ملكه، وعليه تاجُ المُلُوك، وحولَه عظماءُ الروم.!

هرقل يدعو ترجمانه

ثم دعانا ودعا بترجمانه، وقال له: سلْهم أيهم أقربُ نسباً، لهذا الرجل الذي يزعم أنه نبيٌّ؟

قال أبو سفيان: قلت: أنا أقربُهم نسباً!

قال قيصر: أُدْنوه منِّي، وقرِّبوا أصحابَه، فاجعلوهم خلف ظهره.!

ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائلٌ هذا الرجل، عن هذا الذي يزعم أنه نبيٌّ، فإنْ كَذَبَ فكذِّبوه!!

أقول: هذه خطة بارعة حكيمة من (مَلِكِ الروم) ليجعل أبا سفيان صادقاً في كلامه، لا يكذب، إذ يمكن بإشارة منهم، أن يعرف كذبه ـ.

قال أبو سفيان: فواللَّهِ لولا الحياءُ من أن يُمْسِكوا عليَّ كذباً، لكذبتُ عليه، لكنَّني استحييتُ فصدقتُه!

أحد عشر سؤالاً يسأله هرقل

[سأل هرقلُ أبا سفيانَ أحدَ عشر سؤالاً، وهي كالآتي]:

١ ـ **قال هرقل:** كيف نسبُه فيكم؟

قلت: هو فينا ذو نَسَب ـ يعني أنه ﷺ من أشراف قريش ـ.

٢ ـ **قال:** فهل قال هذا القولَ منكم أحدٌ قبله؟ ـ أي هل ادَّعى النبوة أحد منكم قبله؟

قلت: لا.

٣ ـ **قال هرقل:** فهل كان من آبائه من مَلِكٍ؟ ـ يعني هل سبق أنّ في أحد آبائه وأجداده، من كان ملِكاً على العرب؟ ـ.

قلت: لا.

٤ ـ **قال هرقل:** هل يتَّبِعُه أشرافُ النَّاسِ، أم ضعفاؤُهم؟

قلت: بل ضعفاؤُهم.

ـ المرادُ بالضعفاء: المساكينُ والفقراء والأتباعُ الذين لا مكانة لهم في المجتمع ـ.

٥ ـ **قال هرقلُ:** هل يزيدون أو ينقصون؟

أي هل أتباعُ محمد الذين يؤمنون برسالته، يزيد عددهم أم ينقص؟

قلت: بل يزيدون.!

٦ ـ **قال هرقلُ:** فهل يرتدُّ أحدٌ منهم سَخْطةً لدينه، بعد أن يدخل فيه؟

قلت: لا.

أي هل يرجع أحد عن دين الإسلام، بعد أن يدخل فيه؟

٧ ـ **قال هرقل:** فهل كنتم تتهمونه بالكذب، قبل أن يقول ما قال؟

أي هل أمسكتم عليه كذباً، قبل دعواه النبوة؟

قلت: لا.

obeikandl.com

٨ ـ **قال هرقل:** فهل يَغْدِر؟

أي هل ينقض عهده إذا عاهد أحداً، ويغدر به؟

دسيسة من أبي سفيان حول أمر الغدر

قلت: لا، ونحن الآن في عهدٍ معه ـ يريد صلح الحديبية ـ لا ندري ما هو فاعل فيه؟ أي نخاف أن يغدر فيه.!

قال أبو سفيان: ولم تُمَكِّنِّي كلمة أدخلُها في جوابي، أنتقص فيها رسولَ اللَّهِ ﷺ، غير هذه الكلمة، كأنه يقول: لعله يغدر بنا هذه المرة.

٩ ـ **قال هرقل:** فهل قاتلتموه؟ أو قاتلكم؟

قلت: نعم.

١٠ ـ **قال هرقل:** فكيف كانت حَرْبُه وحربُكم؟

قلت: كانت دُوَلاً وسِجَالاً، ينال منَّا وننال منه!!

يعني أننا مرَّةً نغلبه، ومرَّة يغلبنا، وليس هو دائماً المنتصر علينا.

١١ ـ **قال هرقل:** فماذا يأمركم؟

قلتُ: يأمرنا أن نعبد اللَّهَ وحده، وأن لا نشرك به شيئاً، وينهانا عمَّا كان يعبدُ آباؤنا ـ يعني عبادة الأوثان ـ ويأمرُنا بالصلاة، والصَّدَقة، والصِّدقِ، والعَفَاف، وأداء الأمانة، والوفاء بالعهد ـ يعني مكارم الأخلاق ـ.

جواب هرقل على أبي سفيان

هذه هي الأسئلة الأحد عشر سؤالاً التي سأل (هرقلُ) ملكُ الروم أبا سفيان، قبل إسلامه عنها، ليتعرَّف بها على حقيقة دعوى نبوة محمد ﷺ.!

ويمضي أبو سفيان في حديثه لابن عباس، فيقول: بعد أن سألني هذه الأسئلة.

١ ـ **قال هرقل لترجمانه:** قل له: إني سألتُك عن نسبه فيكم؟ فزعمتَ أنه ذو نَسَب، وكذلك الرسلُ تُبعث في نَسَب قومها!

٢ ـ **وسألتُك:** هل قال هذا القول أحد منكم قبله؟ فزعمتَ أن لا.

فقلتُ: لو كان أحدٌ قال هذا القولَ قبْلَه، لقلتُ: رجلٌ يتأسَّى ـ أي يقتدي ـ بقولٍ قد قيل قبله!!

٣ ـ **وسألتك:** هل كنتم تتهمونه بالكذب؟ فزعمتَ أن لا، فعرفتُ أنه لم يكن ليذَرَ ـ أي يترك ـ الكذبَ على الناس، ويكذبَ على اللَّه!!

يريد أنه من المستحيل أن يترك الكذب على الناس، ثم يكذب على اللَّه أشنع الكذب، بادعائه أنه رسولُ اللَّه.!

٤ ـ **وسألتُك:** هل كان من آبائه من مَلِكٍ؟

فزعمتَ أن لا، فقلتُ: لو كان من آبائه ملِكٌ لقلتُ: رجلٌ يطلب مُلْك آبائه!!

٥ ـ **وسألتُك:** هل يتّبعه أشرافُ الناس أم ضعفاؤهم؟

فزعمتَ أن ضعفاءَهم اتَّبعوه، وهم أتباعُ الرسل!!

٦ ـ **وسألتُك:** هل يزيدون أو ينقصون؟

فزعمتَ أنهم يزيدون، وكذلك أمرُ الإيمانِ حتى يتمَّ ويكتمل!!

٧ ـ **وسألتُك:** هل يرتدُّ أحدٌ عن دينه سَخْطةً له، بعد أن يدخل فيه؟

فزعمتَ أن لا، فكذلك الإيمانُ، حين تخالطُ بشاشتُه القلوبَ!!

٨ ـ **وسألتُك:** هل يغدِرُ؟

فزعمتَ أن لا، وكذلك الرسلُ لا يغدرون!!

٩ ـ **وسألتك:** هل قاتلتموه، وقَاتَلكم؟

فزعمتَ أن الحرب بينكم تكون سِجَالاً، مرَّةً تغلبونه، ومرة يغلبكم!!

وكذلك الرسلُ تُبتلَى، ثم تكون العاقبةُ لهم.

١٠ ـ **وسألتك** كيف تكون الحربُ بينكم وبينه؟

فقلت: إنها تكون دُوَلاً، يُدال عليكم مرة وتدالون عليه، أي يكون النصرُ حليفَه تارةً، وأخرى يكون النصرُ حليفَكم، وكذلك الأمرُ بين الرسل وأعدائهم.!

١١ ـ **وسألتك:** بماذا يأمركم؟

فزعمتَ أنه يأمركم بتوحيد اللَّه، وعدم الإشراك به، وينهاكم عمَّا كان يعبد آباؤكم، ويأمركم بالصلاة، والصِّدق، والعفاف، والوفاء، وأداء الأمانة.

قال هرقل ملكُ الروم: وهذه صفةُ النبيِّ الصادق!!

ثم قال له: فإنْ كان ما تقوله حقاً، فسيملكُ موضعَ قدمَيَّ هاتين! ـ أي يملك بلادي وتصبح دياراً للمسلمين.

obeikandl.com

ثم قال هرقل: وقد كنتُ أعلمُ أنه خارجٌ، ولكنْ لم أكنْ أظنُّ أنه منكم ـ أي من العرب ـ ولو أنِّي أعلمُ أنِّي أَخْلُصُ إليه، لتجشَّمتُ لقاءَه ـ أي تحمَّلت عناءَ السفر حتى أَصِلَ إليه ـ ولو كنتُ عنده لغَسَلْتُ عن قدميه..

قال أبو سفيان: ثم دعا بكتاب رسول اللَّه ﷺ الذي كان قد بعثه إليه، فقُرِئَ عليه، فإذا فيه:

نصُّ كتاب الرسول ﷺ إلى هرقل

بسم اللَّه الرحمن الرحيم: من «محمدٍ عبدِ اللَّه ورسولِه» إلى (هرقلَ) عظيمِ الرُّوم، سلامٌ على من اتَّبَعَ الهدى:

أما بعدُ: فإني أدعوكَ بدعايةِ الإسلام ـ أي الدخول في دين الإسلام ـ أسلِمْ تَسلَمْ، يؤتكَ اللَّهُ أجرَكَ مرَّتين، فإن تولَّيْتَ فإنَّ عليك إثمَ الأَرِسيِّينَ ـ أي العُمَّال والفلَّاحين ـ و﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

قال أبو سفيان: فلمَّا أن قَضَى مقالَتَه، علَتْ أصواتُ الذين حوله من عظماءِ الروم، وأُمِرَ بنَا فأُخْرِجنا..!

فلمَّا أن خرجتُ مع أصحابي، قلت لهم: لقد أَمِرَ أَمْرُ (ابنِ أبي كَبْشَةَ) ـ أي عَظُم أمرُ محمد ـ إنه ليخافه ملِكُ بني الأَصْفر ـ أي ملك الروم ـ!!

قال أبو سفيان: فواللَّهِ ما زلتُ موقناً بأنَّ أمره سيظهرُ، حتى أدخل اللَّهُ عليَّ الإسلام)[1].

أقول: كان بعض المشركين، يقولون، عن رسول اللَّه: إنه ابنُ (أبي كَبْشةَ) انتقاصاً لقدره، وبُغضاً له ﷺ، ولا يقولون: «محمد بن عبد اللَّه» و(أبو كبشةَ) هو زوجُ (حليمةَ السَّعديَّة) مرضعةِ الرسول ﷺ، فينسبونه إليه انتقاصاً لقدره عليه السلام، ولهذا قال أبو سفيان: لقد عَظُم أَمْرُ ابنِ أبي كبشة.

متى أسلم أبو سفيان؟

لقد تأخَّر إسلامُ (أبي سفيان) كثيراً، فلم يدخل في الإسلام، إلَّا بعد أن انتشر الدينُ، وفُتحت مكةُ، ودخل الناسُ في دين اللَّه أفواجاً.

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسِّير ٢/ ١٦٠.

روى مسلم عن ابن عباس قال: (كان المسلمون لا ينظرون إلى (أبي سفيان) ولا يقاعدونه ـ أي لا يُجَالسونه لكثرة عدائه وأذَاهُ للنبيِّ ﷺ والمسلمين، حين كان مشركاً ـ فكانوا لا ينسون مواقفه ضدَّهم، وأسلمَ يومَ الفتح مكرهاً، فطلبَ من الرسول ثلاثاً، منها: قال: تؤمِّرني حتى أقاتلَ الكفَّارَ، كما كنتُ أقاتلُ المسلمينَ قال: نعم.

قال الراوي عن ابن عباس: ولو لم يطلب (أبو سفيان) ذلك، ما أعطاه النبيُّ ﷺ ما يطلب، فإنه لم يكن يُسأل شيئاً إلَّا أعطاه)[١].

العيونُ التي بعثها المشركون

ولمَّا كان يوم (الفتح الأعظم) فتح مكة، خرج رسول اللَّه ﷺ من المدينة المنورة، يريد مكة شرَّفها اللَّه، وقد بلغ عددُ المسلمين الذين كانوا معه عشرة آلاف، وكان خروجُه في شهر رمضان، ولم تعلم قريشٌ بخروج رسول اللَّه ﷺ، إلَّا أنها كانت تتوقع أمراً بسبب نقضها (عهدَ الصلح) مع رسول اللَّه ﷺ، وهو (صلحُ الحديبية) فأرسلت قريشٌ (أبا سفيان) و(حكيمَ بنَ حزام) و(بُدَيلَ بنَ ورقاءَ) ليتلمَّسوا الخبرَ عن رسول اللَّه ﷺ!!

فأقبلوا يسيرون حتى أتَوْا مرَّ الظهران ـ مكانٌ يبعُد عن مكَّةَ ثمانين كيلومتراً ـ فإذا هم بنيرانٍ عظيمة، فبينما هم يتساءلون عن هذه النيران، رآهم ناسٌ من حَرَسِ رسول اللَّه ﷺ، فأدركوهم فأتَوْا بهم رسولَ اللَّه ﷺ كأسرى، فأسلم (أبو سفيان) عندئذٍ[٢]، فكان إسلامه متأخراً إلى وقت فتح مكة.!

رواية ابن إسحاق في إسلام أبي سفيان

قال ابنُ إسحاق في روايته عن تفصيل إيمان (أبي سفيان) في روايته عن العباس رضي اللَّه عنه:

(لمَّا كان الصباحُ غدوتُ بأبي سفيان فدخلتُ به على رسولِ اللَّه ﷺ، فلمَّا رآه رسولُ اللَّه ﷺ، قال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأْنِ ـ أي أما حَانَ ـ لك أن تعلمَ أنه لا إلٰهَ إلَّا اللَّه؟

قال: بأبي أنت وأمِّي يا رسول اللَّه! ما أحلمكَ، وأكرمَك، وأوصلَكَ!!

---

(١) رواه مسلم في صحيحه من رواية ابن عباس.

(٢) انظر صحيح البخاري ٣/ ٦١.

واللَّهِ لقد ظننتُ أنْ لو كان مع اللَّه إلٰهٌ غيره، لكان قد أغنى عني شيئاً!!

فقال له رسول اللَّه ﷺ: ويحكَ يا أبا سفيان، ألم يَأْنِ لك أن تعلم أني رسولُ اللَّه؟ **فقال أبو سفيان**: بأبي أنت وأمّي يا رسول اللَّه، ما أحلَمكَ، وأكرمَك، وأوصلَكَ!! فأمَّا هذه ففي النفس منها شيء!؟ ـ كأنه يقول في نفسي منها شك ـ.

فقال له العباسُ: ويحكَ يا أبا سفيان، أسلمْ (واشهدْ أن لا إلٰه إلَّا اللَّه، وأن محمداً رسول اللَّه) قبل أن تُضربَ عُنُقُك!!

قال: فشهد شهادةَ الحقِّ فأسلم[١].

حبسُ أبي سفيان ليرى كتائب المسلمين

نرجع الآن إلى رواية البخاري ، قال العباس رضي اللَّه عنه:

(فرآهم حرسُ النبيِّ ﷺ، فأدركوهم فأخذوهم، فأتوا بهم رسول اللَّه ﷺ فأسلمَ أبو سفيان ـ أي عندما جيء به أسيراً إلى رسول اللَّه ﷺ ـ فلمَّا سار الرسول ﷺ إلى مكة، قال رسولُ اللَّهِ للعباس: احبسْ (أبا سفيان) عند حَطْم الخيل ـ أي عند ازدحامها ـ حتى ينظر إلى المسلمين!

فحبَسَه العباس، فجعلت القبائل تمرُّ مع النبي ﷺ، كتيبةً، كتيبة، على أبي سفيان!

فمرَّت كتيبةٌ فقال: يا عباسُ، من هذه الكتيبة؟ قال: هذه غِفارُ!

فقال أبو سفيان: ما لي ولِغفار!؟

ثم مرَّتْ قبيلةُ سعْد، وجهينةَ، وسُليم، فقال مثل ذلك!!

ثم أقبلت كتيبةٌ لم يَرَ أحدٌ مثلَها، فقال (أبو سفيان): من هذه؟ قال: هؤلاء الأنصارُ، عليهم (سَعْدُ بنُ عُبادَةَ) معه الرَّايةُ!!

فقال له سعد: يا أبا سفيان: اليومَ يومُ الملْحَمة ـ أي يوم القتال والنِّزال ـ اليومَ تُستحلُّ الكعبةُ!!

فقال (أبو سفيان): يا عبَّاسُ، حبَّذا يومُ الذِّمار[٢].

ثم جاءت كتيبة فيها رسولُ اللَّه ﷺ وأصحابُه من المهاجرين والأنصار، فلمَّا

(١) السيرة النبوية لابن إسحاق.

(٢) يوم الذِّمار يعني يوم القتال أن يدافع الإنسان عن بلده.

obeikandl.com

مرَّ رسولُ اللَّه ﷺ بأبي سفيان، قال: يا رسولَ اللَّهِ، ألَمْ تعلمْ ما قال (سَعْدُ بنُ عُبَادة) وأخبره بقوله؟

فقال رسولُ اللَّه ﷺ: اليومَ يومُ الرَّحمة، اليوم يَوْمٌ تُكسى فيه الكعبةُ، وتُعظَّم فيه الكعبةُ، وأمَرَ رسولُ اللَّه ﷺ أن تُركزَ رايتُه بالحَجُون)[1].

رواية ابن سعد وابن إسحاق

وفي رواية ابن إسحاق وابن سعد زيادة، يحسن ذكرها، قال: (وركب العبَّاسُ بغلةَ رسولِ اللَّه ﷺ البيضاءَ، وخرجَ يلتمس بعض الرعاةِ أو الحطَّابة ليخبر قريشاً، ليخرجوا يستأمنون رسولَ اللَّه ﷺ، قبل أن يدخل مكة.

قال العباس: واللَّهِ إني لأسير عليها ـ أي على بغلة رسول اللَّه ـ إذْ سمعتُ كلامَ (أبي سفيان) مع (بُدَيلِ بنِ وَرْقَاءَ) وهما يتحدثان، وأبو سفيان يقول له: ما رأيتُ كالليلة نيراناً قطُّ، ولا عسكراً!!

قال العباس: فعرفتُ صوتَه، فقلتُ: أبا حنظلة ـ كنيةُ أبي سفيان ـ فعرف صوتي، فقال: أبَا الفضل؟ قلتُ: نعم، قال: ما لك؟

قلتُ: هذا رسولُ اللَّه في النَّاسِ، وَا صَبَاحَ قريشٍ واللَّهِ!!

قال: فما الحيلةُ فِدَاكَ أبي وأمِّي؟

قلت: واللَّهِ لو ظفر بك ليضربَنَّ عُنُقَك، فاركبْ معي على البغلة، حتى آتيَ بكَ رسولَ اللَّه ﷺ، فأستأمنَه لك!!

ركوب أبي سفيان مع العباس رضي اللَّه عنه

قال: فركب معي، فجئتُ به، فكلما مررتُ على نارٍ من نيران المسلمين، قالوا: مَنْ هذا؟ فإذا رأوا بغلةَ رسولِ اللَّه ﷺ وأنا عليها، قالوا: هذا عمُّ رسولِ اللَّه على بغلته!!

قال العباس: حتى مررتُ بنارِ (عمرَ بن الخطاب) فقال: من هذا؟ وقامَ إليَّ، فلمَّا رأى أبا سفيانَ ورائي على البغلة، قال: أبو سفيان؟ عدوُّ اللَّهِ؟ الحمدُ للَّهِ الذي أمكَن منك، من غير عهدٍ ولا عقد!!

ثم خرج يشتدُّ نحو رسول اللَّه ﷺ، ليخبره بأمر (أبي سفيان) لعله يأذنُ له بقتله!!

---

(١) صحيح البخاري ٣/ ٦١.

قال العبَّاسُ: وأسرعتُ بالبغلة فسبقتُه، فدخلتُ على رسول اللَّه ﷺ، ودخلَ عليه عمر، فقال: يا رسول اللَّه، هذا أبو سفيان فدَعْني أضربْ عنقه!!

دخول أبي سفيان في جوار العباس

قال العباس: قلت: يا رسول اللَّه، إني قد أجرته!! ـ أي دخل في حمايتي ـ ثم جلستُ إلى رسول اللَّه ﷺ، وقلتُ: واللَّهِ لا يناجيه الليلةَ أحدٌ دوني!!

فلمَّا أكثَرَ عمرُ في شأنه، قلتُ: مهلاً يا عمر، فواللَّهِ لو كانَ من رجال (بني عَدِيّ) ما قلتَ مثل هذا!!

قال عمر: مهلاً يا عباسُ، فواللَّهِ لإسلامُك، كان أحبَّ إليَّ من إسلام الخطَّاب ـ يعني أباه ـ لو أسلمَ!! وما ذلك إلَّا لأني قد عرفتُ أنَّ إسلامَك، كان أحبَّ إلى رسول اللَّهِ ﷺ من إسلام الخطَّاب!!

فقال رسولُ اللَّه ﷺ للعباس: اذهبْ به يا عبَّاسُ إلى رَحْلك، فإذا أصبحتَ فأْتِني به، ومَنَع عمرَ رضي اللَّه عنه أن يقتله، أو يمسَّه بسوء، فلمَّا كان الصباحُ غدا به على رسول اللَّه ﷺ، فأسلمَ وشهدَ شهادةَ الحق، وأصبح في عداد المسلمين.

أبو سفيان رجل يحبُّ الفخر

قال العبَّاس: يا رسولَ اللَّه، إنَّ (أبا سفيانَ) رجلٌ يحبُّ الفخر، فاجعلْ له شيئاً!! قال: نعم، فأعلنِ رسولُ اللَّه ﷺ: أنَّ مَنْ دخلَ دار (أبي سفيان) فهو آمنٌ، ومن دخلَ المسجد الحرامَ فهو آمنٌ، ومن أغلَق عليه بابَه فهو آمن!!

لقد أسلم (أبو سفيان) رضي اللَّه عنه وحَسُن إسلامُه، بعد تلك الرحلة الطويلة من حياة الكفر، وحرب الإسلام، فنقله اللَّه من الشقاء إلى السعادة، ومن الجحيم إلى النعيم، فالإسلامُ يهدم ما قبله، ويقال: إنه ما رَفَع رأسَه إلى رسول اللَّه ﷺ منذ أسلمَ، حياءً منه، وكان رسولُ اللَّه ﷺ بعد إسلامه يحبُّه، وشهد له بالجنة، وعفا اللَّهُ عمَّا سلف، فقد ذاق حلاوة الإيمان، فأضحى من الصحابة الأبرار.

رضي اللَّه عن (أبي سفيانَ بن حرب) فقد كان حامل لواء الكفر، ثم حمل راية الإسلام، فنقله اللَّه من الجحيم إلى النعيم.!

* * *

obeikandl.com

قصة أمّ المؤمنين
(أمّ حبيبةَ) بنتِ أبي سفيانَ

٢١

(أمُّ حَبِيبة) رضي اللَّه عنها هي بنتُ (أبي سفيان) رضي اللَّه عنه، واسمُها (رَمْلة)، كانت متزوجةً برجل من المسلمين، اسمُه (عُبَيدُ اللَّهِ بن جحش) هاجر بها إلى أرض الحبشة (الهجرةَ الثانية).

كانت قد أسلمتْ على الرغم من أن أهلَها كانوا مشركين، وخافت من إكراه أبيها لها على الكفر، فهاجرت مع زوجها، وبقيت في أرض الحبشة مدةً من الزمن، ثم تنصَّر زوجُها، وارتدَّ عن الإسلام، ومات هناك، وبقيتْ (أمُّ حبيبةَ) على الإسلام، ليس لها زوجٌ ولا نصيرٌ، ولكنَّ اللَّهَ حفظها، وأكرمها بزواج خير المرسلين بها، بعد أن مات زوجُها، وجفا عنها أهلُها، القريب منهم والصَّديقُ.!

هجرة أم حبيبة إلى الحبشة

تُحدِّثنا أمُّ المؤمنين (أمُّ حبيبة) رضي اللَّه عنها عن هجرتها، وتنصُّرِ زوجها، وبقائها في أرض الحبشة، بلا مُعيل ولا كفيل، فتقول: (رأيتُ في المنام زوجي (عُبيدَ اللَّهِ بنَ جحش) بأسوأ صورة وأشوهها، ففزعتُ، وقلتُ: تغيَّرتْ واللَّهِ حالُه.!

فلمَّا كانَ الصباحُ، جاءَ إليَّ زوجي (عُبيدُ اللَّهِ) فقال لي: يا أمَّ حَبيبة، إني نظرتُ في الأديان، فلم أرَ ديناً خيراً من (النَّصْرانية)، وقد كنتُ قبل اليوم (نصرانياً) ثم دخلتُ في دين محمد، وأنا الآنَ أرجعُ إلى (النصرانية) ديني الأول.!

فقلتُ: يا عُبيد اللَّهِ، واللَّهِ ما هذا بخيرٍ لك؟ تتركُ الإسلامَ وتدخل في النصرانية؟ إني أرى الشيطانَ لَعِبَ فيك، وأخبرتُه بخبر الرؤيا التي رأيتُها له في منامي، فلم يُلْقِ لها بَالاً.!

تقول: وأكبَّ على شرب الخمر، وأقبل على الفسق والفجور، حتى مات.

رؤيا أم حبيبة رضي اللَّه عنها

قالت: فرأيتُ في منامي ذات ليلة، كأنَّ آتياً يأتيني، ويقول لي: يا أمَّ المؤمنين، فاستيقظتُ فَزِعَةً، وقلتُ: لعلَّ اللَّهَ يجعلُ لي من هذا الضيق فَرَجاً ومَخْرجاً، وأوَّلتُها بأن رسولَ اللَّه ﷺ يخطُبني، ويريدُ أن يتزوَّج بي!! هكذا تأولتْ (أم حبيبة) الرؤيا!!

خطبة الرسول ﷺ لأم حبيبة

تقول: فما هي إلَّا أن انقضتْ عِدَّتي، من وفاة زوجي، فما شعرتُ وأنا بأرضِ الحبشة، إلَّا برسولِ النجاشي ـ وهي جارية كانت تخدم الملكَ ـ تستأذن عليَّ، فأذنتُ لها، فقالت لي: إنَّ الملِكَ يقول لكِ: إنَّ رسولَ اللَّه ﷺ، كتبَ إليه أنه يرغبُ أن يتزوَّج بكِ، وأن أكونَ أنا الواسطة في الزواج، ويقول لكِ الملِكُ: وكِّلي مَنْ يُزَوِّجكِ!!

ففرحتُ فرحاً عظيماً، لا يعلمُ قَدْره إلَّا اللَّهُ، وقلتُ لها: بشَّرَكِ اللَّهُ بالخير، وأعطيتُها سوارين من فضَّةٍ، وخواتمَ كانت بيدي، سروراً بما بشَّرَتني به.!

قالت: فلمَّا كان العشيُّ، أرسل إليَّ الملِكُ، يأمرني أن أُوكِّل من يزوِّجني، ممن أعرفهم من المسلمين، فأرسلتُ إلى (خالدِ بنِ سعيد) فوكَّلته، ودعا النجاشيُّ (ملِكُ الحبشة) جعفرَ بنَ أبي طالب رضي اللَّه عنه، ومن كان هناك من المسلمين المهاجرين أن يحضروا عقْدَ الزواجِ من رسولِ اللَّهِ ﷺ بالسيدة (أم حبيبة) رضي اللَّه عنها ابنة أبي سفيان!![1].

خُطبة النجاشي في عقد الزواج

وخطب النجاشي فقال: (الحمدُ للَّهِ الملِكِ القُدُّوس، المؤمنِ العزيز الجبَّار، وأشهدُ أن لا إلٰه إلا اللَّه، وأن محمداً عبده ورسولُه، وأنه الذي بشَّر به (عيسى ابن مريم).

أمَّا بعد: فإنَّ رسول اللَّه ﷺ طلب منّي أن أزوِّجه (أمَّ حبيبة) فأجبتُ إلى ما دعاني إليه رسولُ اللَّه ﷺ وقد أصدقتُها/ ٤٠٠ أربعمائة/ دينار عن

(١) البداية والنهاية ٤/ ١٤٣ وأخرجه الحاكم ٤/ ٢٠.

رسول اللَّه ﷺ، ثم سَكَبَ الدنانيرَ بين يدي القوم، من أقرباء السيدة أم حبيبة، وهو (خالد بن سعيد) رضي اللَّه عنه ومن كانوا معه في المجلس.

خُطبة خالد بن سعيد

فتكلَّم (خالدُ بن سعيد) فقال: الحمدُ للَّهِ، أحمدُه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا اللَّهُ، وأشهد أن محمداً عبده ورسولُه، أرسله اللَّهُ بالهدى ودينِ الحقِّ، ليظهره على الدين كلِّه ولو كره المشركون.!

أما بعدُ: فقد أجبتُ إلى ما دعا إليه رسول اللَّه ﷺ وزوَّجتُه (أمَّ حَبيبةَ) بنتَ أبي سفيان، فبارك اللَّهُ لرسول اللَّهِ في زواجه.

ودفع النّجاشيُّ الدنانيرَ إلى (خالد بن سعيد) فقَبضها.

ثم أرادوا أن يقوموا فقال النجاشيُّ: اجلسوا فإنَّ من سنَّة الأنبياءِ إذا تزوَّجوا، أن يُؤكلَ الطعامُ على الزواج، فدعا بطعامٍ فأكلوا ثم تفرَّقوا.

قالت أم حبيبة: (فلمَّا وصلَ إليَّ المالُ، أرسلتُ إلى الجارية التي بشَّرتني خمسين ديناراً، فقلت لها: خذيها فاستعيني بها! فقالت لي: عَزَم عليَّ المِلكُ، أن لا آخذَ ممَّا أعطاكِ شيئاً، وقد أمر المِلكُ نساءه، أن يبعثن بكل ما عندهن، من طيبٍ، وعطر، فقدمتُ بكل ذلك على رسول اللَّه ﷺ، فكان يراه عليَّ ولا يُنكر، وكانت جاريةُ المِلك هي التي جهَّزتني.!

وكانت تقول لي: حاجتي إليك أن تُقْرئي رسولَ اللَّه ﷺ مني السلام، وتُخبريه أني قد اتَّبعتُ دينه، فلما أخبرتُ رسول اللَّه ﷺ تبسَّمَ، وأقْرأتُه سلامَها، فقال: وعليها السلامُ ورحمةُ اللَّه وبركاته)[1].

لماذا تولَّى خالد بن سعيد زواجها دون أبيها؟

وإنما تولَّى (خالدُ بن سعيد) أحدُ أقارب (أمِّ حبيبة) زواجَها دون أبيها، لأنَّ أباها (أبا سفيانَ) كان يومذاكَ مشرَكاً، ولا ولايَةَ للمشرك على المسلمة، ثم هو لا يرضى أن يزوِّجها لأعدى أعدائه (محمد بن عبد اللَّه) ولكنه لمَّا بلغه أن ابنته (أمَّ حبيبة) تزوجتْ برسول اللَّه ﷺ، لم ينكر هذا الزواج، بل باركَ وأكبرَ هذا الزواج، وقال عن رسول اللَّه: (هو الفحلُ لا يُجدعُ أنفُه)، وهي كلمةُ إقرار، بل وامتداحٍ لهذا الزواج الميمون، وكان زواجُ الرسول ﷺ بها تكريماً منه عليه السلام لها علىٰ إسلامها، وهذا من الوفاء والبر.!

---

(١) انظر كتاب حياة الصحابة ٢/ ٤٨٣ وأخرجه ابن سعد ٨/ ٩٧.

وقد تقدم معنا في قصة (أبي سفيان) أنه لمَّا دخل على ابنته في المدينة، وأراد الجلوس على الفراش، أسرعتْ فطوَتْه عنه، ولمَّا سألها عن السبب أجابته بكل صراحة وإيمان، قالت له: إنك امرؤ مشرك نجس، وهذا فراش رسول اللَّه ما كان لك أن تجلس عليه!! وهكذا شأنُ الإيمان في وجه الكفر والطغيان.!

رحم اللَّه أم المؤمنين أم حبيبة وأسكنها فسيح جناته، ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥].!!

* * *

obeikandl.com

قصة الصحابي سلمانُ الفارسي رضي الله عنه

٢٢

كان (سلمانُ) قبل إسلامه مجوسياً، وكان أبوه رئيساً في قومه، يدعو إلى المجوسية، ورأى سلمانُ أن هذا الدِّينَ باطلٌ، فهرب من أبيه، لطلبِ الدين الحقِّ، فلحق براهبٍ وصَحِبَه إلى الممات، ثم براهبٍ آخر، وبقي يتنقَّل من راهب إلى راهب، حتى سمع بالإسلام، ودلَّه الراهبُ الأخير، على ظهور النبيِّ الخاتم ﷺ.

وكان قد تعلَّم التوراة والإنجيل، من طول ملازمته للقسس والرُّهبان، ولمَّا سمع بخروج خاتم المرسلين ﷺ، قَصَده مع بعض الأعراب، فَغَدرُوا به، في (وادي القُرَى) فباعوه ليهوديٍّ، على أنه عبدٌ مملوكٌ لهم، ثم باعه اليهوديُّ ليهوديٍّ آخر، من (بني قريظة)، فقدمَ به المدينةَ، فلمَّا شاهدَ النبيَّ ﷺ، ورأى فيه علامةَ النبوَّة، أسلمَ رضي اللَّه عنه، فكاتَبه سيِّده على أن يدفع له/ ٤٠/ أربعين أوقيةً من ذهب، ويغرسَ له/ ٣٠٠/ ثلاثَ مائةِ نخلة، حتى يَفُكَّه من العبودية ويُعتقه.!

فأعانه الرسولُ ﷺ وأصحابُه على أدَاءِ المكاتبة، فأدَّاها وصار حُرّاً طلِيقاً، فلزمَ النبيَّ ﷺ، وأقام معه في دار الهجرة، حتى مات سنة (٣٦) ستٍ وثلاثين من الهجرة، عن عُمُر مديد، يزيد على مائة سنة، كما جاء في سيرته، واللَّهُ تعالى أعلم.

مولدُ سلمان ووطنه الأصليُّ

يقول سلمانُ رضي اللَّه عنه: (أنا من بلدة «رَامَهُرمز» ـ اسمٌ لمدينة مشهورة بفارس ـ تداوَلني بضعةَ عشر رجلاً، من رَبٍّ إلى ربٍّ) أي من مالكٍ إلى مالك، حتى أكرمه اللَّه بالحرية، وبالدخول في الإسلام، على يد النبي ﷺ، حيث أعانه مع بعض الصحابة، على أن يتخلَّص من رقِّ العبودية.

فرجلٌ ابتُلِيَ بهذا البلاءِ العظيم، في سبيل طلبِ الدِّينِ الحقِّ، لهو جديرٌ بأرفعِ منزلةٍ، وأسمَى مكانة، ولهذا كرَّمه الرسولُ ﷺ بقوله: (سلمانُ منَّا آل البيت)!!

وما أجملَ ما قاله القائل:

لَقَدْ رَفَعَ الإِسْلَامُ (سَلْمَانَ) فَارِسٍ وَقَدْ وَضَعَ الشِّرْكُ الشَّرِيفَ (أَبَا لَهَبْ)

سلمان من السابقين إلى الإسلام

سلمان الفارسي رضي اللَّه عنه، من الرجال السابقين إلى الدخول في الإسلام، كان من الرعيل الأول في هذه الدعوة المباركة، تحمَّل الأذى والبلاء في سبيل اللَّه، ولكنه بقي ثابتاً صامداً أمام تلك الشدائد، فهو من المستضعفين، الذين قال عنهم القرآن الكريم: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٨].

عاش (سلمانُ) زاهداً في الدنيا، راغباً في طاعة اللَّه، لا تهمُّه المباهج والمناظر، لقد غمرَ حبُّ اللَّه وحبُّ رسوله قلبَه، فلم تَعُدْ تشغله الدنيا، بما فيها من سرور ونعيم، عمَّا أكرمه اللَّه به، من الدين الإسلامي العظيم.!

زيارة سعد لسلمان الفارسي

دخل عليه (سعدُ بنُ أبي وقاص) رضي اللَّه عنه، ليعوده في مرضه، فبكى (سلمانُ) رضي اللَّه عنه بكاءً حاراً، فقال له سَعْد: ما يبكيك يا سلمانُ؟ تُوفّي رسولُ اللَّه ﷺ، وهو عنك راضٍ، وستَرِدُ عليه الحوضَ إنْ شَاءَ اللَّه تعالى.!

فقال له سلمان: ما أَبكي فَزَعاً من الموت، ولا حِرْصاً على الدنيا، ولكنِّي أبكي لأنَّ رسولَ اللَّه ﷺ، عهِد إلينا عهداً فقال: (ليكُنْ بُلْغةُ أحدِكم مثل زادِ الراكب) ـ أي ما يكفي المسافرَ من الزاد ـ وحولي ما ترى من متاع الدنيا!!

فقال له سعد: أوصني يا سلمانُ، فقال له رضي اللَّه عنه: اذكر ربَّك عند هَمِّك إذا هُمِمتَ ـ أي أصابك الهمُّ ـ وعند حكمك إذا حَكَمتَ، وعند قِسْمتك إذا قسمتَ!!

فلمَّا مات رضي اللَّه عنه بيعَ متاعُه كلُّه، فلم يبلغ مائةَ درهم[١]، هذه كلها هي ممتلكاتُه، وهي الدنيا التي كان يخشى على نفسه منها.

وكان رضي اللَّه عنه يقول: سمعتُ رسول اللَّه ﷺ يعِظ فيقول: (إن أكثرَ النَّاسِ شِبَعاً في الدنيا، أطولُهم جوعاً في الآخرة! يا سلمانُ! إنما الدنيا سجنُ المؤمنِ، وجنَّةُ الكافر)[٢].

---

(١) انظر كتاب سمير المؤمنين ص١٢٦ للشيخ محمد الحجَّار.

(٢) الحديث رواه ابن ماجه والحاكم وأبو نُعيم في الحلية ١/١٩٨.

وصية سلمان رضي اللَّه عنه

حُكي عن (طارق بن شِهاب) أنه باتَ ليلةً من الليالي، عند (سلمانَ الفارسي) لينظر إلى اجتهاده في العبادة، فقام يصلِّي من آخر الليل، فلم يرَ الذي كان يظنُّه منه من كثرة العبادة.!

فلمَّا حدَّثه بذلك قال له سلمان رضي اللَّه عنه:

(حافظوا على هذه الصلوات الخمس، فإنهن كفَّاراتٌ لهذه الجراحات.

ـ يريد الذنوب والمعاصي ـ ما لم تُصِبِ المقتلةَ ـ يعني الكبائر ـ!

فإذا صلَّى الناسُ العِشَاءَ، رجعوا على ثلاث منازل:

١ ـ منهم من عليه، ولا له.

٢ ـ ومنهم من له، ولا عليه.

٣ ـ ومنهم من لا له، ولا عليه.

الأول: رجلٌ اغتنمَ (ظُلمةَ الليل) وغفلةَ الناس، فركب رأسَه في المعاصي، فذلك هو الرجل الذي عليه، وليس له، يعني (الخاسر).

الثاني: رجل اغتنمَ (ظُلمةَ الليل) وغفلةَ الناس، فقام يصلِّي ـ يعني صلاة التهجُّد ـ فذلك هو الرجل الذي له، وليس عليه يعني (الرابح).

الثالث: رجلٌ صلَّى العشاءَ ثم نامَ، فذلك الذي ليس له، ولا عليه، يعني (المقتصد)[١].

الفهم السليمُ لشريعة اللَّه

أقول: هذا هو الفهمُ السليمُ، والفقهُ في الدين، الذي نَصَحنا به (سلمانُ الفارسيُّ) رضي اللَّه عنه، فليس الدين بكثرة الصلاة والصيام، إنما بالبعدِ عن الذنوب والآثام، كما قال سيدنا رسول اللَّه ﷺ: (اتَّقِ المحارم تكنْ أعبدَ النَّاسِ، وارضَ بما قَسَم اللَّه لك، تكن أغنى الناس)[٢] الحديث.

فمن أدَّى الفرائضَ والواجباتِ، واجتنبَ المعاصي والمحرمات، نجا من عذاب اللَّه، كما قال سيدنا رسولُ اللَّه ﷺ للأعرابي الذي قال له: (والذي بعثك بالحقِّ، لا أزيد على ذلك ولا أَنْقُص منه)، فقال ﷺ: أفلَحَ إنْ صَدَق!!

---

(١) نقلاً عن كتاب سمير المؤمنين ص١٢٨ لفضيلة الشيخ الحجَّار.

(٢) طرف من حديث رواه الترمذي.

obeikandi.com

وفي رواية أخرى: (دخل الجنَّةَ إنْ صَدَق)[١].

حكمة سلمان رضي اللَّه عنه

ومن الحِكَم والأمثال التي تُروى عن سلمان رضي اللَّه عنه قولُه:

(مَثَلُ المؤمنِ: كمثَلِ مريضٍ معه طبيبُه، يعرف داءَه ودواءَهُ، فإذا اشتهى ما يضرُّه مَنَعَه، وقال له: إنْ أكلتَه هلكتَ!!

فكذلك المؤمنُ يشتهي أشياءَ كثيرة، فيمنعه اللَّهُ منها، حتى يموت فيدخل الجنة).

قصة المؤاخاة بين سلمان وأبي الدرداء

لمَّا هاجر المسلمون إلى المدينة، آخى النبيُّ ﷺ بين المهاجرين والأنصار، وصارت هذه المؤاخاةُ أقوى وأعظمَ من الأخوَّة بالنسب، فكان الميراثُ بينهما، بسبب هذه (الأخوَّة الإيمانية) يرث المهاجر أخاه الأنصاري، ويرث الأنصاريُّ أخاه المهاجر، وصارت هي الرابطة المعتدّ بها في شريعة اللَّه، تحقيقاً لقول الحقِّ جلّ وعلا: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وإليكم هذه القصة كما رواها لنا الإمام البخاري في صحيحه: عن وَهْبِ بنِ عبد اللَّه رضي اللَّه عنه أنه قال: (آخى النبيُّ ﷺ بين «سلمانَ الفارسي» و«أبي الدَّرداء» ـ أي جعلهما أخوين في الدِّينِ ـ فزار سلمانُ أخاهُ أبا الدَّرداء!

رأى (أمَّ الدَّرداء) مُتَبَذِّلةً ـ يعني تلبس ثيابَ المهنة التي لا تليق بالزوجات ـ فقال لها سلمانُ: ما شأنُكِ؟ ـ أي لماذا تلبسين هذه الملابس الوضيعة ـ فقالت: أخوك أبو الدَّرداء ليس له حاجة في الدنيا!؟ ـ أي طلَّق الدنيا وليس له حاجة في النساء فلمن أتزيَّن؟ ـ فجاء أبو الدَّرداء فصنع له طعاماً، ثم قال له: كُلْ فإني صائم!!

فقال له سلمان: ما أنا بآكلٍ حتى تأكل! فأكل (أبو الدرداء) ـ أي أفطرَ إكراماً لأخيه سلمان ـ.!

فلمَّا كان الليلُ ذهب أبو الدرداء يقوم ـ أي ليصلي صلاة التهجد ـ فقال له سلمانُ: نَم الآن، فنام، ثم ذهب يقوم، فقال له: نَمْ!! فلمَّا كان من آخر الليل، قال له سلمانُ: قُم الآنَ، فقامَ فصلَّيا جميعاً!

---

(١) طرف من حديث أخرجه البخاري.

فقال له سلمان: (إنَّ لربِّك عليكَ حقاً، وإنَّ لنفسِكَ عليك حقاً، ولأهلِكَ عليك حقاً، فأعطِ كل ذي حقٍّ حقَّه!!).

فأتى أبو الدرداء النبيَّ ﷺ فذكَرَ ذلكَ له ـ أي جاء شاكياً أخاه سلمان للنبي ﷺ بأنه كلَّفه أن يُفطر، ومنعه من قيام الليل ـ فقال له ﷺ: (صَدَقَ سلمانُ)[1] رواه البخاري.

ومعنى قوله (إنَّ لأهلك عليك حقاً) أي لزوجك عليك حقُّ حُسنِ المعاشرة، وحُسْنِ الصُّحبة.!

فقهُ سلمان رضي اللَّه عنه

وهذا الحديث الشريف يدلُّ على فقه (سلمان) رضي اللَّه عنه، فقد نَصَح أخاه أبا الدَّرداء، ونبَّهه على أن الواجب على المسلم، تحقيق التوازن بين حقِّ اللَّهِ، وحقِّ العباد، فمن ضيَّع حقَّ اللَّه، فقد أساء وقصَّر، وكذلك من ضيَّع حقوق العباد، فقد أساء وأَخْطأَ، وقد سدَّدَ رسولُ اللَّه ﷺ رأيَ (سلمان) رضي اللَّه عنه، وبيَّن أنه هو الدينُ، وهو الفهم السليمُ لتعاليم الإسلام، ولمَّا كان (سلمانُ) من المهاجرين، ومن السابقين إلى الإسلام، كان أفقهَ من (أبي الدرداء) لأنه رافقَ النبيَّ ﷺ من بدءِ الدعوة، فتفقَّه واستفاد وأفاد، وكان في توجيهه ونصحه، موافقاً لهدي النبيّ ﷺ (من يرد اللَّه به خيراً يفقّهه في الدين)!

زهد سلمان رضي اللَّه عنه

أ ـ كان (سلمان) رضي اللَّه عنه زاهداً في الدنيا، لم تفتنه الدنيا بمظاهرها ومباهجها، مع أنه كان أميراً على المدائن، لأنه تلقَّى عن رسول اللَّه ﷺ دروسَ الزهد، فقد كان صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليهِ أزهدَ الناس في الدنيا، ووجَّه أمَّتَه إلى عدم التكالب على جمع حُطَام الدنيا، فقال للرجل الذي سأله النصيحةَ الصادقة، التي يتقرَّب بها العبدُ إلى اللَّه فيحبه اللَّهُ، ويحبه الناسُ، قال له ﷺ: (ازهدْ في الدنيا يحبَّك اللَّهُ، وازهدْ فيما في أيدي الناس يحبَّك الناسُ)[2].

---

(١) الحديث رواه البخاري في صحيحه.

(٢) الحديث رواه الترمذي بسند حسن ولفظ الحديث: دلني على عملٍ إذا فعلتُه أحبني اللَّهُ، وأحبني الناس».

تواضع سلمان رضي اللَّه عنه

ب ـ وأخرج ابن سعد عن ثابت رضي اللَّه عنه أنه قال:

(كان سلمانُ أميراً على المدائن، فجاء رجلٌ من أهل الشام، ومعه حِمْلٌ ثقيلٌ فيه تينٌ، وكان على (سلمانَ) عباءةٌ خَلِقة أي بالية ـ وهو لا يعلم أنه أميرٌ ـ فقال له: تعالَ احملْ هذا الحِمْلَ، فحمل (سلمانُ) الحملَ ومشى، فرآه الناسُ وعلموا أنهُ الأمير، فأخذوا يقولون: جاءَ الأميرُ، جاءَ الأميرُ، فخجلَ الرجل أشدَّ الخجل، وجاء يعتذر منه، ويقول له: لم أعرفك!!

فقال سلمانُ: لا أتركه حتى أبلغ به منزلَك، وبقي حاملاً له، حتى وصل المنزل)[1].

رحم اللَّه (سلمان الفارسي) رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته. وأكرمنا بصحبته بدار النعيم!

البدور الثلاثة (سلمانُ، وعمارٌ، وصُهَيب)

عظمةُ هذا الدين، أنه لم يُبْنَ، ولم يؤسَّسْ على العصبيَّة القبليَّة، إنما أُسِّسَ على مبدأ (الأُخُوَّة الإسلامية) والمبادئ الإنسانية ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] لهذا نجد التآخي بين أفراد معتنقيه، بقطع النظر عن الأشكال، والألوان، والبلدان، فسلمانُ فارسيٌّ، وصهيبٌ روميٌّ، وبلالٌ حبشي، ولكنهم جميعاً التقَوْا على (مبدأٍ واحدٍ)، جَمَعهم الإسلامُ في بوتقةٍ واحدة، ونَظَمهم في عقْده الفريد، فأصبحوا إخوةً في اللَّه، متعاونين متحابِّين، لا يتميَّز أحد على آخر، كما وضَّح الكتاب العزيز ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢] فاللَّهُ جلّ وعلا خَلَق البشرَ ليتعارفوا، لا ليتنازعوا ويتخاصموا، وجعل التفاضل بينهم بالإيمانِ، والعمل الصالح، فلا فضلَ لعربي على عجميٍّ، ولا لأبيضَ على أسود، إلَّا بالتقوى والنفع للعباد، ولهذا نجد هذا التلاحمَ، والترابُطَ بين أفراد المجتمع الإسلامي، فالإسلام دين عالميٌّ، جَمَع بين الأمثال والأفراد، والأجناس، والألوان.!

ورضي اللَّه عن جميع أصحاب رسول اللَّه، الذين حملوا راية الإسلام، حتى ظهر أمره، وعلا على جميع الأديان، فعلى عواتقهم قام صرحُ هذا الدين العظيم.!

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٤/ ٦٣ وأبو نُعيم في الحلية ١/ ٢٠٠.

ثناء الرسول ﷺ على سلمان

أشاد الرسولُ ﷺ بفضل (سلمانَ الفارسيِّ) وأثنى على إيمانه الثناءَ العاطر، بين جمعٍ من الصحابة غفير، فقد روى البخاريُّ في صحيحه عن أبي هريرة رضيَ اللَّهُ عنه، أنه قال:

(كنَّا جلوساً عندَ النبيِّ ﷺ، فأُنزِلتْ عليه سورةُ الجمعة ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ [الجمعة: ٣] فقلتُ: من هم يا رسول اللَّه؟ ـ وفينا سلمانُ الفارسيُّ ـ فوضَعَ رسولُ اللَّه ﷺ يده على (سَلْمَان) ثم قال: لو كانَ الإيمانُ بالثريَّا، لتناولَهُ رجلٌ من هؤلاء)[1] يريد بذلك عشيرةَ (سلمانَ الفارسيّ) رضي اللَّه عنه وأرضاه.

وفي رواية أخرى لمسلم: (لو كان الدِّينُ عند الثُّريَّا، لذهبَ به رجلٌ من فارس، ـ أو قال من أبناء فارس ـ حتى يتناوله)[2].

والمراد بالرجل في هذا الحديث ـ واللَّه أعلم ـ (سلمانُ) رضي اللَّه عنه، فإنه كان قويَّ الدين، صَبَر على أنواع البلاء، في سبيل عقيدته وإيمانه، وتحمَّل ضروب الأذى، نصرةً لدين اللَّه، رضي اللَّه عنه وأرضاه، وجعل الجنة مسكنه ومأواه.!

* * *

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) رواه مسلم في صحيحه.

obeikandl.com

قصة إسلام بلال الحبشي رضي الله عنه

٢٣

هذا المؤمن المجاهد (بلالٌ) رضي اللَّه عنه، ضَرَب لنا أروعَ الأمثلة، في الصبر على الشدائد، وتحمُّلِ صنوفِ العذاب والبلاء، بسبب إسلامه، حتى خلَّد التاريخُ اسمَه، ونالَ وسامَ العزِّ والشرف، في التضحية في سبيل نصرة الدين، ورَفْعِ رايةِ الإسلام.!

اسمه: (بلالُ بنُ رَبَاح الحَبَشِيّ) حبشيُّ الأصل، أسودُ اللونِ، طويلٌ نحيف، ضعيفُ البُنْية، لكنه قويُّ الإيمان، كالطود الشامخ، لا يتزعزع ولا يلين، فقد كان طاهرَ القلب، صادق الإيمان.!

كان رضي اللَّه عنه عبداً مملوكاً لقبيلة (بني جُمَح) فلمَّا سمع بالإسلام، بادرَ إلى اعتناقه، فصار أسيادُه يذيقونه أشدَّ أنواع العذاب، ليصرفوه عن دينه فلا يرجع.!

طُرُقُ التَّفَنُّنِ في تعذيب بلال

كان رأسُ الطغيان (أُمية بنُ خلف) يوالي تعذيبَ بلالٍ بنفسه، ويُغْري به الوِلْدانَ والسفهاء، يطوفون به في شِعَابِ مكة، وهو مربوطٌ بالسلاسل، يشهِّرون به في أنحاء مكة، فيأبى أن يجيبَهم إلى ما طلبوا، ولا يفتُرُ لسانُه عن قوله: أحدٌ، أحد.!

ولمَّا عجزوا عن صرفه عن الإسلام، أخذه الطاغية (أُميةُ بنُ خَلَف) إلى رمضاءِ مكة، فطرحه على الأرض، ثم أمر بصخرةٍ عظيمة، فوُضعت على صدرِهِ، وقال له: واللَّهِ لا تزالُ هكذا حتى تموت، أو تكفُرَ بمحمد، وتعبدَ اللات والعُزَّى!!

فكان وهو في ذلك البلاء يردِّد: أَحَدٌ أَحَدٌ، أحدٌ أحدٌ.!

obeikandi.com

في كلِّ يوم يُفعل به ذلك، حتى مرَّ به (أبو بكر الصدِّيقُ) رضي اللَّه عنه، وهو تحت العذابِ، فقال لأميةَ بنِ خَلَفٍ: أَلَا تتقي اللَّهَ في هذا المسكين؟ حتَّى متى تفعل به ذلك؟ فقال له عدوُّ اللَّه: أنتَ أفسدتَه عليَّ، فأنقذْه ممَّا ترى!!

أبو بكر يشتري بلالاً ويُعْتِقه

اشتراه (أبو بكر) بخمسة أواقٍ من الفضة، وأعتقَه لوجه اللَّه، وفيه نزلت هذه الآيات الكريمة: ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ * لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ * وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ [الليل: ١٤ ـ ٢١] أي ليس لأحدٍ عنده نعمةٌ سابقةٌ، حتى يكافئه عليها، وإنما ينفق المالَ لوجه اللَّه، وطلباً لمرضاته، ولسوف يعطيه ربه من الأجر ما يرضيه! وهذا شرف عظيم لأبي بكر، حيث جاء هذا المديح العظيم له، من ربِّ العزَّة والجلال!!

نزلت هذه الآيات بإجماع المفسرين في سيدنا (أبي بكر الصدِّيق) رضي اللَّه عنه، فقد كان يشتري المستضعفين من المؤمنين بماله، ويعتقُهم لوجه اللَّه تعالى، فقال المشركونَ: إنما أعتَق (أبو بكر) بلالاً، ليدٍ كانت له عليه ـ أي لإحسانٍ سابق من بلال عليه ـ فنزلت هذه الآياتُ، وفيها بيانُ سبب الإعتاق، أنه لم يكن إلَّا لوجه اللَّهِ تعالى، وليس لسابق فضلٍ وإحسان، ولهذا كان عمر رضي اللَّه عنه، يمتدح أبا بكر وبلال، فيقول: (أبو بكرٍ سيِّدُنَا، وأعتَقَ سيِّدَنا يعني بلالاً)[1].

كلام الحافظ ابن كثير

قال الحافظ ابن كثير: (والآية نزلت في (أبي بكر) بالإجماع، ولكنها عامةٌ في كلِّ من أنفق مالَه لوجه اللَّه، ولا شكَّ أن (أبا بكر) داخل فيها، وأولى الأمة بعمومها، فقد كان صِدِّيقاً، تقيًّا، كريماً، بذَّالاً لأمواله في طاعة اللَّه، ونصرةِ رسوله، رضي اللَّه عنه وأرضاه)[2].

أقول: هذا العبدُ الحبشيُّ الأسود، بإيمانه الصادق، صار سيِّداً، بل نال السيادة والشرف، على كثير ممن أسلموا من العرب، حتى جعله أميرُ المؤمنين

---

(١) رواه البخاري.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٦٤٣.

(عمرُ الفاروقُ) سيِّداً، حين قال (أبو بكرٍ سيِّدُنا وأعتَق سيِّدنا) فقولُ عمر هذا ـ وهو من الملْهَمينَ ـ في حقِّ بلال، له شأن كبير.!

ثناء الرسول ﷺ على بلال

ولقد أثنى رسول اللَّه ﷺ على بلالٍ، وأشاد بطاعته للَّهِ، وكثرة عِبادته، فقد روى مسلم في صحيحه بسنده، أن رسول اللَّه ﷺ قال لبلالٍ: يا بلالُ حدِّثني بأرجَى عَمَلٍ عملتَه في الإسلام، فيه منفعة!؟ فإني سمعتُ الليلةَ خَشْفَ نعليك بين يديَّ في الجنَّة، ـ أي سمعتُ صوتَ مشيك أمامي في الجنة فما الذي تعملُه من صالح الأعمال ـ!!

قال بلال: ما عملتُ عملاً في الإسلام، أرجى عندي منفعةً، من أنِّي لا أتطهَّرُ طَهوراً تاماً ـ أي أتوضَّأ ـ في ساعة من ليلٍ أو نهار، إلَّا صلَّيتُ بذلك الطَّهور، ما كتَبَ اللَّهُ لي أن أصلِّي)[1].

وفي هذا الحديث الشريف، بيانُ عظيم فضل الوضوء، والصلاةِ عند كلّ حَدَث، وهي (رؤيا منامية) رأى فيها الرسولُ ﷺ أنه دخل الجنة، فإذا به يسمع صوت مشيِ بلالٍ أمامه، فلذلك سأله عن العمل الصالح، الذي فعله حتى دخل الجنة؟

وفي هذا الحديث أيضاً مزيدُ فضلِ بلال ـ مؤذِّنِ رسول اللَّه ـ الذي بقي طيلةَ حياة الرسول ﷺ مؤذِّناً له، بصوته الشجيِّ النديِّ، ولمَّا أراد بلال ـ بعد وفاة الرسول ـ أن يخرج للجهاد، لأنه لم يعد يُطيق البقاءَ في المدينة، بعد أن فَقَد حَبِيبَه محمداً رسولَ اللَّه ﷺ، فقد أظلمَتْ في وجهه الدنيا، وشعر بأن قلبه لم يعد يطاوعه، وهو لا يرى رسول اللَّه ﷺ، فمنَعَه (أبو بكر) وطلب منه البقاء مؤذناً كما كان في زمن الرسول ﷺ، ولمَّا أصرَّ بلالٌ على الخروج، ناشَدَه باللَّهِ أن يقيم معه، فأقام معه حتى مات أبو بكر، ولمَّا تولَّى (عمرُ) الخلافةَ، طلب منه بلال الخروج للجهاد، وقال لعمر: إني أرى الجهادَ للمؤمنِ، أفضلَ عملٍ، يزيد في حسناته، فأذِنَ له عمرُ رضي اللَّه عنه، فخرج للشام مجاهداً، وبقي فيها حتى توفي بدمشق سنة عشرين من الهجرة، عن ثلاث وستين سنة كما هو عمر رسول اللَّه ﷺ.!

---

(١) رواه البخاري ومسلم، وفي رواية البخاري (سمعت دَفَّ نعليك بين يديَّ في الجنة).

obeikandl.com

أولُ مؤذّن في مكة أذّن في الشام

لقد كان بلالٌ رضي اللّه عنه أوّل من أذّن في مكة، حين فتحها رسولُ اللّه ﷺ.

ولمّا فتح رسول اللّه ﷺ مكة، صعد (بلال) على ظهر الكعبة فأذّن فوقها، فكان أولَ أذانٍ سمعه الناسُ، أذانُ بلالٍ رضي اللّه عنه وأرضاه.!

وأذّن بالشام مرة واحدة، فبكى وأبكى المسلمين معه، رحمه اللّهُ، وأسكنه فسيح جناته، فما أحلى الصوت الحنون، حين ينطلق من قلبٍ مؤمن خاشع!؟

obeikandl.com

قصةُ مقتلِ أميةَ بنِ خَلَفٍ

٢٤

ومن عجائب وغرائب الأخبار، أنَّ مصرعَ الطاغيةِ الفاجرِ (أُميَّةَ بنِ خَلَف) الذي كان يعذِّب بلالاً، ويضَع على صدره الحجرَ الكبير، بعد أن يطرحه على ظهره في بطحاءِ مكة، ويقول له: واللَّهِ لا تزال كذلك حتى تموت، أو تكفر بمحمد، وتعبد اللَّاتَ والعُزَّى!!.

كان هلاكُ هذا الطاغية، على يد (بلال) رضي اللَّه عنه، فقال أبو بكر الصدِّيق أبياتاً، يهنِّئه فيها بهلاك الطاغية، منها قولُه:

هَنِيئاً زَادَكَ الرَّحْمَنُ خَيْراً ... فَقَدْ أَدْرَكْتَ ثَأْرَكَ يَا بِلَالُ

وذكر أبو نُعَيم في الحِلْية عن ابن إسحاق أنه قال:

كان (أُمية بن خَلَف) يُخرِجُ (بلالاً) إذا حمِيَتِ الظهيرةُ، فيطرحه على ظهره، في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة، فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد، فيقول وهو في ذلك البلاء: أحدٌ، أحدٌ ـ أي اللَّه ربي، واحدٌ أحد، لا شريك له ـ!!

عمَّارُ بنُ ياسر يرثي بلالاً

قال عمار بن ياسر وهو يذكر بلالاً وأصحابه، وما كانوا فيه من العذاب والبلاء:

جَزَى اللَّهُ خَيْراً عَنْ بِلَالٍ وَصَحْبِهِ ... عَتِيقاً[١] وأَخْزَى فَاكِهاً[٢] وَأَبَا جَهْلِ

عَشِيَّةَ هَمَّا فِي بِلَالٍ بِسَوْءَةٍ ... ولَمْ يَحْذَرَا مَا يَحْذَرُ المَرْءُ ذُو العَقْلِ

بِتَوْحِيدِهِ رَبَّ الأَنَامِ وَقَوْلِهِ ... شَهِدْتُ بِأَنَّ اللَّهَ رَبِّي عَلَى مَهْلِ

---

(١) عتيقاً: أي معتقاً وهو أبو بكر.

(٢) فاكهاً هو ابن المغيرة عمُّ أبي جهل.

فَإِنْ يَقْتُلُونِي يَقْتُلُونِي فَلَمْ أَكُنْ ... لِأُشْرِكَ بِالرَّحْمَنِ مِنْ خِيفَةِ القَتْلِ
فَيَا رَبَّ إِبْرَاهِيمَ وَالعَبْدِ يُونُسٍ ... وَمُوسَى وَعِيسَى نَجِّنِي ثُمَّ لا تُبْلِ
لِمَنْ ظَلَّ يَهْوى الغَيَّ مِنْ آلِ غَالِبٍ ... عَلَى غَيْرِ بِرٍّ كَانَ مِنْهُ وَلَا عَدْلِ[1]

المستضعفون في الأرض

لقد كان (بلال، وسَلمان، وصهيب) من أوائل من دخل في الإسلام، فهم (الرعيلُ الأول) لهذا الدين الإسلامي المجيد، وهم الأبطال الثلاثة المستضعفون في الأرض، الذين بطشَ بهم صناديدُ الكفر، من رؤساء مكة، لا لذنب إلَّا لأنهم آمنوا باللَّه الواحد الأحد، وتركوا عبادة الأصنام والأوثان، وإنما كان هؤلاء الثلاثة (كبشَ الفداء) لأنه لم يكن لهم مَنْ يَحْميهم، مِنْ ظُلْم الطغاة المتجبِّرين، (فبلالٌ) حبشِيُّ الأصل، و(سلمانُ) فارسيُّ الأصل، و(صهيبٌ) روميُّ الأصل، وعلى عواتق هؤلاء وأمثالهم، شُيِّد صرحُ الإسلام، ولهذا رفع اللَّه قدرهم، وأعلى منزلتهم، وجعل حبَّهم واجباً على المسلمين، حيث قال جلَّ شأنه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

أبو بكر يسترضي الضعفاء من المؤمنين

روى مسلم في صحيحه عن عائذٍ المُزَني ـ وهو من أهل بيعة الرضوان ـ أنَّ (أبا سفيان) أتى على (سلمانَ، وصهيب، وبلال) في نفر معهم، فقالوا: ما أخذتْ سيوفُ اللَّه من عدوِّ اللَّه ـ!! أي لم تستوف حقَّها من عدوِّ اللَّهِ أبي سفيان ـ حين كان مشركاً لكثرة عدائه لرسول اللَّه ﷺ!!

فقال لهم أبو بكر رضي الله عنه: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيِّدهم؟

فأتى النبيَّ ﷺ فأخبره بما قالوه، فقال: يا أبا بكر، لعلَّك أغضبتَهم؟

لئن كنتَ أغضبتَهم لقد أغضبتَ ربَّك!!

فأتاهم فقال: يا إخوتاه هل أغضبتكم؟ قالوا: لا، يغفر اللَّه لك يا أخي)[2].

لننظر إلى هذا التوجيه النبوي الكريم في قولِ رسول اللَّه (لأبي بكر) وهو مَنْ هو في الفضل والمرتبة الرفيعة عند رسول اللَّه ﷺ: (يا أبا بكر، لعلَّك

(١) رواه أبو نُعيم في الحلية ١/١٤٨.
(٢) رواه مسلم في صحيحه.

أغضبتَهم؟ لئن كنتَ أغضبتَهم، لقد أغضبتَ ربَّك)!؟ مع أنهم قالوا كلاماً شديداً، يستوجب المؤاخذة!! ممَّا جعل أبا بكر الصدِّيق يذهب إليهم يسترضيهم، ويطلب منهم مسامحتَه، فيقول: يا إخوتاه، هل أغضبتُكم؟ فما أعظمَ هذه المكانة، التي نالَها هؤلاء الضعفاء الفقراء، عند اللَّه تعالى، بحيث صار غضبُهم سبباً لغضب اللَّه تعالى!!

وصدق اللَّه العظيم إذْ قال لرسوله ﷺ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

توجيهٌ ربانيٌّ لتكريم المستضعفين

ما كان هذا التوجيه الإلٰهي في حقِّ هؤلاء الضعفاء السابقين إلى الإسلام، إلَّا من أجل بيان قيمتهم، وقدرهم عند اللَّه عزَّ وجلَّ، وتوجيهِ الأمة إلى احترامهم وإكرامهم، لأنهم كانوا (الدِّرعَ الواقي) لاستمرار هذه الرسالة الربانية، حتى آتت أكلها؟ رضي اللَّه عنهم وأرضاهم، وجعل الجنة مستقرهم ومأواهم!؟!

عن سعيد بن جبير قال: قلت لعبد اللَّه بن عباس: هل كان المشركون يَبْلُغون من أصحاب رسول اللَّه من العذاب، ما يُعْذَرون به في ترك دينهم؟ قال: نعم واللَّهِ!! إنْ كانوا ليضربونَ الواحدَ منهم، ويجعلونه يجوع ويعطش، حتى لا يستطيع أن يستوي جالساً، من شدة الضُّرِّ، حتى يعطيَهم ما سألوا من الفتنة، حتى يقولوا له: هذا الوثنُ إلٰهُكَ من دون اللَّه، فيقول: نعم، افتداءً منهم لما يبلغون من جهده[١].

* * *

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٣/ ٥٩.